المستقبل العربى
مايو 1986 - العدد 87

كتب

Amin Ma'luf, The Crusades Through Arab Eyes, (London: Al Saqi Books, 1984), 292p

الحروب الصليبية من وجهة نظر العرب، أمين معلوف، لندن، دار الساقى: 1984، 292 صفحة

د. رءوف عباس، أستاذ التاريخ الحديث فى كلية الآداب-جامعة القاهرة.

-1-

على الرغم من وفرة ما أخرجته المطابع فى الغرب من دراسات حول الحروب الصليبية منذ القرن التاسع عشر حتى الآن بمختلف اللغات الأوربية، إلا أن أحدا لم يقدم للقارىء الغربى الرؤية العربية للحروب الصليبية، ولم يعن بتقديم شهادات المعاصرين لتلك الحركة التاريخية المهمة من المؤرخين العرب. ومن هنا تأتى أهمية كتاب أمين معلوف-الكاتب اللبنانى المعروف- الذى نشر بالفرنسية فى باريس عام 1983 وترجم إلى الإنكليزية ونشر فى العام التالى لظهور طبعته الفرنسية، مما يعكس أهمية الكتاب بالنسبة لسوق النشر فى الغرب.

والكتاب الذى بين أيدينا يقدم نمطا خاصا من الكتابة التاريخية، أو من رسم إطار الحوادث التاريخية، فكاتبه ليس مؤرخا محترفا، ومن ثم لا يتمسك بحرفية الكتابة التاريخية ولا يتقيد بمنهج البحث التاريخى، ورغم إطلاعه على مدى عامين (كما يقول فى ملاحظاته حول المراجع) على أهم ما كتبه المؤرخون الإنكليز والفرنسيون عن الحروب الصليبية إلا أننا لا نكاد نجد أثرا لوجهة نظر الصليبيين فى مقابل وجهة النظر العربية التى ركز عليها الكاتب وأبرزها، بل وجعل شهود العيان يقدمون شهاداتهم للقارىء فى ترجمة رصينة نقلت روح النص العربى إلى اللغة الأجنبية التى يكتب بها الكاتب. كذلك لم يشغل أمين معلوف نفسه بهموم المؤرخ الذى يدقق فى المصادر ويقارن بينها، ويخضع الروايات للنقد ويحلل الحوادث، ويستخرج النتائج، ويهتم بالعلاقات العلية، والسياق الزمنى وغير ذلك من ضوابط منهجية تحكم الكتابة التاريخية. فجاء كتاب أمين معلوف فى صورة عرض أدبى لحركة تاريخية كبرى من خلال ما كتبه شهود العيان من العرب، فقدم الكاتب صورة قلمية بارعة للحوادث التاريخية تجعلنا نعيش الصراع بين سطور الكتاب وكأننا معاصرين له، وتضعنا فى جو المعارك و تجعلنا نتمثل الشخصيات البارزة التى لعبت دورا فى الصراع وكأنها ماثلة أمامنا، وتجول بنا فى قصور الحكام وأسواق المدن فتجسم الصور فى ذهن القارىء ببراعة فذة لا يستطيع تقديمها إلا من ملك ناصية التعبير باللغة التى يكتب بها ويتميز بملكة الأديب، وهو ما نجده يتجلى بوضوح تام فى عمل أمين معلوف.

و قد قسم الكاتب الكتاب إلى مقدمة وستة أبواب تضم أربعة عشر فصلا وخاتمة. وأعطى للأبواب الستة عناوين ذات دلالة للمرحلة التى يعرض لها وللحوادث التى يقدمها: كالغزو، والإحتلال، رد الفعل،ا لنصر، الإرجاء، الطرد، واتخذ من التقسيم الزمنى إطارا لعرض الحوادث فى سياق متصل، يقترب كثيرا من الطابع الدرامى.

-2-

يستهل الكاتب كتابه بمشهد دارمى وقع فى آب/اغسطس 1099 نرى فيه القاضى «أبو سعد الحراوى» يقف وسط ديوان الخليفة العباسى المستظهر بالله يلوم الخليفة وبطانته لإنغماسهم فى الترف وحياة الدعة، بينما إخوانهم فى الشام لا يجدون المأوى وتسفك دماؤهم وتسبى نساؤهم، ليصور لنا ما أصاب المسلمين من فزع نتيجة للمجازر التى تعرضوا لها والتى إختتمت بسقوط القدس فى أيدى الصليبيين. ويدلف الكاتب من هذا المدخل ليصور لنا وصول الفرنج إلى دار الإسلام واصطدامهم بالسلاجقة فى آسيا الصغرى فى صيف عام 1096 معتمدا فى ذلك على رواية إبن القلانس حتى يصل بالصليبيين إلى أسوار أنطاكية، فيدع إبن الأثير يصف لنا مأساة أنطاكية التى ما لبثت أن وقعت فى أيدى الصليبيين لتفتح

بذلك الطريق أمام الغزاوة لإجتياح بلاد الشام فى الوقت الذى إستطاع فيه الصليبيون الإستيلاء على الرها.وفى خضم الأحداث يلقى الكاتب الأضواء على السلاجقة وعلى الأوضاع السياسية فى السلطنة السلجوقية وما سببه الغزو لها من ارتباك ويسجل للسلاجقة محاولتهم المخلصة لصد طوفان الغزو دون جدوى، ويقف الكاتب وقفة طويلة أمام المعرة، بلد أبى العلاء حيث تصرف الفرنج مع أهالى المدينة المغلوبة على أمرها بوحشية بالغة حين قتلوا جميع السكان عن بكرة أبيهم دون تمييز بين رجل و امرأة و طفل لبث الرعب فى قلوب العرب وإضعاف مقاومتهم. وبلغت وحشيتهم الذروة عندما فعلت بهم المجاعة فعلها فأكلوا لحوم الأطفال العرب بعد طهيها. ثم اشعلوا النار فى المدينة المنكوبة فقضوا عليها قضاء تاما (13 كانون الثانى/يناير 1099)، ورغم المقاومة الشعبية من جانب جماهير الفلاحين إستطاع الفرنج الإستيلاء على حصن الأكراد وهناك أوفد إليهم القاضى جلال الملك أمير طرابلس- التى كان يتعاقب بنوها على حكمها- سفارة محملة بالهدايا محاولا بذلك ان يجنب إمارته مصير المعرة وزودهم بالجياد والمؤن وأمدهم بمن يدلهم على الطريق إلى بيروت، وبفضل هذه المعونة التىجنّبت طرابلس المصير المحتوم إلى حين، إستطاع الصليبيون الوصول إلى نهر الكلب، حيث حدود الدولة الفاطمية التى كانت تقف حتى الآن موقف المتفرج مما يدور بالقرب منها على أرض سلطنة السلاجقة ظنا من ولاة الأمور فيها أن ذلك يضعف الخلافة العباسية، خصمهم اللدود، لصالح الخلافة الفاطمية الشيعية، ولذلك لم يفعل الوزير الفاطمى الأفضل أكثر من مجرد تقوية حامية القدس تاركا المنطقة الواقعة بين بيروت والقدس لمصيرها المحتوم مما خلق حالة فوضى عارمة، ويسر مهمة الغزاة، وأصاب سكان المدن الساحلية بالهلع وفرّغها من معظم سكانها. وفى حزيران/يونيو 1099 بلغ الصليبيون أسوار القدس واستمرت حامية المدينة تقاوم نحو شهر، ثم عجزت عن صد الغزاة فعرضت إخلاء المدينة مقابل الحفاظ على أرواح الجنود، وقبل الصليبيون العرض فتركوا الحامية تنسحب إلى عسقلان تحت جنح ظلام الليل، ثم اجتاحوا المدينة وقتلوا معظم سكانها دون تمييز بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

و هنا يعود بنا الكاتب إلى المشهد الدارمى الذى استهل به الكتاب: خطاب القاضى الحراوى فى ديوان الخليفة العباسى المستظهر بالله منبها إلى خطورة الغزو، محددا ابعاد النكبة، مطالبا بالجهاد فى سبيل الله.

وفى الباب الثانى الذى حمل عنوان «احتلال 1100-1128» قدم أمين معلوف عرضا شيقا للجهود التى بذلها الصليبيون لتدعيم إحتلالهم للساحل الشامى وفلسطين، فحدثنا عن تدعيم أركان مملكة بيت المقدس والمعارك التى دارت بين السلاجقة وإمارة أنطاكية الصليبية والدور السلبى الذى وقفه دقاق أمير دمشق حتى أجبرته ظروف الجوار لمملكة بيت المقدس على الاحتكاك بالصليبيين الذين شنوا هجوما على دمشق ساهمت فيه إمارة الرها إلى جانب مملكة بيت المقدس.ومرة أخرى يتجلى تفكك الجبهة العربية فى المساعدة التى قدمها فخر الملك بن عمار أمير طرابلس إلى الجيش الصليبى القادم من آسيا الصغرى لمعاونة مملكة بيت المقدس فمده بالمؤم والهدايا وأخطر من ذلك المعلومات التى تمكن الصليبيين من النيل من جيش دمشق. وعند ما أدرك أمير طرابلس أهمية التعاون مع دقاق أمير دمشق فى وقت متأخر تعمد دقاق خذلانه، وبذلك فقد ثقة الصليبيين فيه وفتح الطريق أمام إقامة إمارة صليبية رابعة فى طرابلس. وفشلت محاولات الفاطميين استعادة بيت المقدس، ولكن هزيمة الصليبيين فى حران أنقذت الموصل وبغداد من الوقوع فى أيديهم ورفعت معنويات المقاومة العربية، غير أن أنظار الصليبيين اتجهت إلى طرابلس التى إمتنعت عليهم، وأخيرا سقطت بعد حصار دام ألفى يوم وبيع معظم سكانها فى أسواق الرقيق، ثم تلا ذلك سقوط بيروت وصيدا وذبح معظم سكانهما وبذلك أصبحت صور وحلب ودمشق تحت التهديد المباشر للصليبيين. ومرة أخرى ظهر داعية آخر للجهاد يتابع نداء الحراوى هو القاضى أبو الفضل بن الخشاب قاضى حلب فتوجه إلى مسجد بغداد وبصحبته أحد الأشراف وبعض رجال الطرق الصوفية من أبناء حلب ليقرع أجراس الخطر و يدعو إلى الجهاد.

لقد يئس الناس من تفرق صفوف الحكام وعدم إتحادهم فى مواجهة الخطر الصليبى، فراحوا يعبئون الجماهير لمقاومة الإحتلال الأجنبى لبلادهم الذى إمتد من أنطاكية شمالا حتى سيناء جنوبا وتتجلى إرتفاع الروح المعنوية بين صفوف المقاومة الشعبية عند ما نجح سكان صور فى مقاومة الحصار الصليبى مدة 132 يوما وأوقعوا الهزيمة بالمعتدى (نيسان/ابريل 1112). و فى حلب أخذت الجماهير زمام المبادرة فى أيديها بزعامة القاضى إبن الخشاب فاختاروا القادة وفرضوا عليهم السياسة التى يتبعونها ونجحوا فى الحاق هزيمة منكرة بجيش إمارة أنطاكية (حزيران/ يونيو 1119) فى سرمادا ولكن الصليبيين ما لبثوا أن استولوا على صور التى هجرها من نجا من سكانها إلى دمشق (تموز/يوليو 1124). وبذلك أصبحت حلب محاصرة بالوجود الصليبى ولكن سكانها صمدوا فى وجه الغزاة بقيادة القاضى إبن الخشاب الذى ما لبث أن أغتيل على أيدى طائفة الحشاشين (الاسماعيلية).

و حمل **الباب الثالث** عنوان «رد الفعل 1128 - 1146» و يبدأه الكاتب بمشهد مقتل الوزير المزدغانى فى دمشق الذى كان يحمى طائفة الحشاشين وما تبعه من قيام سكان المدينة بملاحقة أفراد الطائفة وذبحهم، وما تبع ذلك من هرب من نجا من أفراد الطائفة إلى فلسطين والإحتماء بالفرنج، فانتهز الصليبيون الفرصة لاحتلال دمشق، ولكن تعرض الجيش

الصليبى لحرب عصابات من القبائل العربية والأتراك أنهك قواه وسهل للجيش العربى النظامى مهمة إلحاق الهزيمة فى أول رد فعل حقيقى للغزو الصليبى، وتلا ذلك ظهور الأتابك عماد الدين زنكى حاكم حلب والموصل الذى برزت أهميته من خلال موقفه من الصراع على السلطة داخل السلطنة السلجوقية، ثم وقع عليه عبء الجهاد ضد الصليبيين وساعدته الظروف بحدوث شقاق فى جبهة الصليبيين عام 1130 وصل إلى حد الصراع المسلح، ويحاول عماد الدين زنكى جمع الصف العربى بالقوة ليضع بذلك الأساس الذى بنى عليه خليفته نور الدين محمود وحدة المشرق العربى.

تلك الجهود التى يعرض لها المؤلف فى **الباب الرابع** فيتتبع جهود نور الدين محمود فى توحيد إمارات المشرق العربى تحت سلطته وبروز أسد الدين شيركوه قائده الكردى و ابن أخيه يوسف صلاح الدين الذى برز من خلال الحملات على مصر الفاطمية للحيلولة دون وقوعها فى أيدى الصليبيين، تلك الحملات التى إنتهت بوقوع مصر فى أيدى جنوده وتنصيب شيركوه وزيرا فى القاهرة، ثم تقلّد صلاح الدين الوزارة بعد وفاة عمه وتحويل الخلافة الشيعية فى مصر إلى خلافة عباسية سنية بإعلان إنتهاء حكم آخر الخلفاء الفاطميين. وقدّر لصلاح الدين أن يجنى ثمار ما صنعه نور الدين محمود فيوحد مصر والشام تحت حكم بيت أيوب ويواصل جهاده ضد الصليبيين حتى يتوّجه بتحرير القدس(2 تشرين الأول/أكتوبر 1187). ويصور الكاتب تصويرا دقيقا سياسة صلاح الدين الحكيمة وفروسيته، و يشارك المعاصرين فى لومه لسماحه للصليبيين بالخروج من بيت المقدس إلى عكا سالمين مما جعل عكا تمتنع عليه حين حاول فتحها فكأنه دعّم بيده صفوف الصليبيين.

و **فى الباب الخامس** الذى حمل عنوان «الإرجاء 1187-1244» يعرض المؤلف للدور الأيوبى فى الصراع العربى-الصليبى بعد وفاة صلاح الدين وتأثره بالصراع السياسى بين الأيوبيين فى مصر والشام إلى حد عودة الصليبيين إلى إحتلال الساحل الفلسطينى. بل وتعرّض مصر للغزو الصليبى. وعاد التمزق إلى الصف العربى إلى الحد الذى جعل الأيوبيين يهادنون العدو حتى ان الملك الكامل الأيوبى إتفق مع الإمبراطور فردريك على إحتلال القدس مرة أخرى ويترك له ممرا يربطها بالساحل بعد تدبير معركة وهمية خسرها الجانب الأيوبى لصالح الفرنج. وهكذا أرجىء إنجاز المهمة التى بدأها صلاح الدين والتى كان لا بد من أن تنتهى بطرد الصليبيين، وتركت هذه المهمة لقوة عسكرية جديدة أفرزها النظام الأيوبى فى مصر هى قوة المماليك الأتراك الذين أتموا عمل صلاح الدين الأيوبى.

وفى **الباب الأخير** الذى يحمل عنوان «الطرد 1244-1291» يتحدث المؤلف عن تعرّض المشرق العربى للغزو المغولى من خلال عرض شائق لتاريخ المغول وعلاقاتهم بالدولة العباسية وصراعهم معها، وفى الوقت الذى طرق فيه المغول أبواب بلاد الشام كانت هناك حملة صليبية جديدة تتجه إلى مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الذى فكر فى التحالف مع المغول ليضع المشرق العربى بين شقى الرحى، ولكن صلف المغول وقلة خبرتهم بأصول الدبلوماسية أنقذت العرب من هذا المصير. وفى خضم الأحداث التى صاحبت حملة لويس التاسع على مصر والتى إنتهت بأسر الملك الصليبى وجلاء قواته عن مصر، برز المماليك الأتراك واستطاعوا أن ينتزعوا السلطة من أيدى الأيوبيين، وتمكن السلطان المملوكى قطز من هزيمة المغول فى عين جالوت (3 أيلول/ سبتمبر 1260) ليقضى بذلك على آمالهم السياسية فى المشرق العربى ويجنّبه شرهم، ويعيد مرة أخرى توحيد مصر والشام ويمهد الطريق لخليفته الظاهر بيبرس ومن بعده السلطان قلاوون وابنه خليل لتحرير التراب العربى من الإحتلال الصليبى.

و فى **خاتمة الكتاب** حول الكاتب تفسير أسباب هزيمة العرب أمام الصليبيين وتفوّق الصليبيين على العرب، فأرجع الأولى إلى أن أمور العرب قد أصبحت بيد غيرهم من الأتراك والأكراد والأرمن فأحس العرب أنهم غرباء فى بلادهم، وفترت همتهم فى صنع الحضارة، وبدأت أولى خطواتهم فى طريق التخلّف. أما الفرنج فكانوا يمرون بفترة صحوة زادتها قوة ورسوخا صلتهم الجديدة بالحضارة الإسلامية فى الشرق التى كانت قد بلغت الذروة، فنهلوا من معينها فكانت أساسا لنهضتهم، بل وتعرف الفرنج على أشياء كثيرة أدخلوها إلى لغاتهم بألفاظها العربية، وضرب المؤلف أمثلة لذلك. هذا فى الوقت الذى انكفأ فيه العرب على أنفسهم وتقوقعوا وتملّكتهم عقدة الشك فى كل ما هو أجنبى عامة وكل ما هو غربى خاصة، وانعكس هذا بدوره على نظرة العرب المعاصرة للتحديث وموقفهم من التغريب.

ويرى المؤلف أن الحروب الصليبية تحولت إلى عقدة مزمنة عند العرب، فهم يرون كل تدخل غربى فى بلادهم روحا صليبية ويرون فى الوجود الإسرائيلى إمتدادا للوجود الصليبى، وتؤثر ذكريات الحروب الصليبية على الوجدان العربى المعاصر تأثيرا كبيرا، فكثيرا ما قورن جمال عبد الناصر بصلاح الدين الأيوبى عند ما تحققت الوحدة بين مصر وسوريا على يديه، وحمل قسمان من الأقسام الثلاثة لجيش التحرير الفلسطينى إسم «حطين» و«عين جالوت». وهكذا ظل المشرق العربى ينظر إلى الغرب على أنه عدو طبيعى للعرب يجب أن يقفوا منه موقف الحذر، وهى نظرة تضرب بجذورها إلى أعماق التاريخ وتعود إلى أيام الصراع العربى- الصليبى.

وهكذا قدم لنا أمين معلوف ملحمة التاريخ العربى فى المشرق على مدى ما يزيد على قرنين من الزمان فى إطار الحركة الصليبية ورد الفعل العربى تجاهها، واستقى مادته من كتابات المعاصرين للأحداث وشهود العيان العرب وحدهم، ولم يغب عن باله أن الصراع لم يكن سياسيا محضا، بل كان حضاريا أيضا، وتجلى هذا بوضوح فى الفصل الذى اختار له عنوان «الأمير والبرابرة» الذى عرض فيه ملاحظات أسامة بن منقذ على سلوكيات الصليبيين فى مملكة بيت المقدس، وتركيزه على البون الشاسع بين مدنية العرب وبربرية الفرنج. وما يلبث الفرنج أن يتعلموا من العرب بسرعة ويواجهونهم بسلاحهم.

ولم يجهد المؤلف نفسه فى البحث عن المفاتيح الأساسية لظاهرة ضعف العرب المتفوقين حضاريا عن مواجهة الغزو الصليبى فى بداية الأمر فلم يضع أمامنا صورة الواقع العربى الإقتصادى والإجتماعى والسياسى الذى يعين القارىء على التوصل إلى إجابة هذا التساؤل حول هزيمة العرب فى مواجهاتهم الأولى مع الصليبيين، ثم مع المغول فيما بعد. فقد كان المجتمع العربى يعانى من ردة إقطاعية بعد أن كان قد بدأ يضع أقدامه فى القرن العاشر الميلادى على طريق التحول الرأسمالى بعد ما برز رأس المال التجارى، وترك آثارا مهمة على البنية الإقتصادية والإجتماعية وعلى البنية الفكرية فظهرت المدارس الفكرية الإسلامية التى تعالج الإرادة الفردية فى مواجهة فكرة الجماعة التى سادت الفكر الإسلامى فى عصور سابقة، غير أن البنية السياسية ظلت على حالها، فلم تواكب التغير الذى شهده المجتمع العربى فى ذلك القرن، وكان لا بد من أن يخلى النظام السياسى القديم، الذى لم يعد يعبر عن الواقع الإجتماعى القائم بالفعل، الطريق لنظام سياسى جديد يعبر عن التغير فى البنية الأساسية ولكن عجز رأس المال التجارى العربى عن تقديم البديل للنظام السياسى التقليدى فتح الطريق أمام قوى جديدة وافدة على المجتمع العربى إستفادت من عجز النظام السياسى التقليدى، واستطاعت ان تستفيد من موقعها فى المؤسسة العسكرية لتفرض النظام الإقطاعى على مجتمع لم يعرفه من قبل، وهو إقطاع وظيفى يرتبط بالخدمة العسكرية إذ كان صاحب الإقطاع يفقد إقطاعه إذا إستغنى سيده عن خدماته أو مات فى ميدان القتال. ومن ثم لجأ الاقطاعيون الجدد إلى إستنزاف موارد إقطاعهم، بل وتجميد قوى الإنتاج عن طريق الوقف ليضمنوا بقاء ريعها لأبنائهم من بعدهم مما أدى إلى إضعاف قوى الإنتاج فى المجتمع العربى. فإذا اضفنا الى ذلك ما أصاب علاقات الإنتاج من تدهور، أدركنا مدى الخلل البنيوى الذى أصاب المجتمع العربى فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، أضف إلى ذلك ما ارتبط بالنظام الإقطاعى الجديد من تفكك الكيان السياسى للدولة العربية الإسلامية، وتحوله إلى إمارات شبه مستقلة عن بعضها البعض، تدين بروابط واهية بالسلطنة السلجوقية الإقطاعية وما ارتبط بذلك من تنافس بين الأمراء على توسيع نطاق إقطاعهم، ممافجّر صراعا داخليا إتخذ شكل الحروب الأهلية الصغيرة هنا و هناك.

تلك كانت المفاتيح الأساسية لظاهرة ضعف العرب وعجزهم عن مواجهة الغزو الصليبى رغم تفوقهم الحضارى البارز، وهو ما أغفله أمين معلوف، وما كان يحتاج إلى إبراز لتفسير تلك الظاهرة التى تثير التساؤل فى ذهن قارىء الكتاب.

وإذا كان المؤلف قد أشار- فى خاتمة الكتاب- إلى ظاهرة التقوقع التى عاناها المجتمع العربى نتيجة الحروب الصليبية، فالأمر يحتاج أيضا إلى تفسير. لقد أصابت الهزيمة العرب بعقدة فقدان الثقة بالنفس، فها هم قوم يقلون عنهم حضارة ينزلون بهم من الكوارث والنكبات ما يعجزون عن صده، إلى الحد الذى جعل الصليبيين، على قلة أعدادهم، يلحقون الهزيمة غير مرة بقوات إسلامية تفوقهم عددا وعدة، وتكررت تلك الظاهرة عند ما ابتليت المنطقة بالغزو المغولى. ويرجع ذلك فى رأينا- إلى عجز القوى العسكرية الإقطاعية عن توفير الحماية للناس لعدم استيعابهم لدلالات التحدى الصليبى، وقصر نظرهم عن إدراك المصلحة «القومية» وإهتمامهم بمصالحهم الإقليمية المحدودة الضيقة. ومن ثم كان الإنفصال بين القوى العسكرية الإقطاعية والجماهير التى فقدت الثقة بها إضافة إلى رصيد السلبية الذى مكن الصليبيين من أن ينتشروا على أرض الوطن العربى هذا الإنتشار السرطانى.

وكان على الجماهير أن تبحث لنفسها عن مخرج من هذا المأزق عبرت عنه حركات محدودة كتلك التى قادها القاضى الحراوى والقاضى إبن الخشاب. وعند ما تجاوزت القوى العسكرية السياسية حدود مصالحها الضيقة فى مرحلة تالية بعدما أدركت أن الصراع العربى- الصليبى صراع بقاء، فإهتمت بالمصلحة «القومية» وأعلتها فوق المصالح الذاتية، أتيحت الفرصة لحكام من أمثال عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى لرأب الصدع بين الجماهير والسلطة، فعادت الثقة المفقودة بين السلطة والجماهير، وتم توحيد الصف العربى فكان رد الفعل العربى للغزو الصليبى، وكانت الإستجابة للتحدى الأجنبى، وكان تراجع المد الصليبى.

ولكن البنية الإقطاعية ظلت كما هى، ولم ينجح النظام السياسى الذى أفرزته فى إرساء تقاليد سياسية تحدد العلاقة بين مستوياته المختلفة وبينه وبين الجماهير، فكانت تلك الهزات العنيفة التى تعرض لها المشرق العربى عند انتقال السلطة من أمير إلى آخر أو من سلطان إلى آخر، فاكتوت الجماهير بنيران الحروب الأهلية التى بددت طاقة المجتمع العربى فى مواجهة التحدى الصليبى، وهددت وحدته عند ما عادت الوحدة السياسية إلى التمزق لتتيح للوجود الأجنبى فرصة الإستمرار بما تقدمه له من تنازلات.

وهكذا عانت الأجيال المتعاقبة على مر ما يزيد على قرنين من الزمان من ذلك الخلل البنيوى، وعادت عقدة عدم الثقة بالنفس إلى التضخم. ولما كان الصراع يصطبغ بالصبغة الدينية رغم أنه كان صراعا سياسيا وحضاريا أساسا، فقد ركز الناس على الصفة الدينية للصراع ودفعتهم خشيتهم على عقيدتهم الدينية من التأثر بعقائد أعدائهم الذين يختلفون عنهم فى الدين، فآثروا السلامة وأغلقوا باب الإجتهاد فى الدين والدنيا على السواء، وانكفأوا على أنفسهم، وأصبحوا ينفرون من بضاعة الشعوب الأخرى، بعد أن كانوا ينهلون من تراث الحضارات المحيطة بهم دون ان يجدوا غضاضة فى ذلك. أصبحت هناك حساسية فائقة تجاه كل ما هو مستورد من الغير حضارة وفكرا، ونتج عن ذلك ركود حضارى فتح الطريق أمام التخلف.

ولعل ذلك يفسر النتيجة التى خرج بها المؤلف عند ما رأى ان التحدى الصليبى أصاب العرب بعقدة مزمنة جعلتهم ينفرون من الغرب وتتأثر علاقتهم به بذكريات الغزو الصليبى، ويتوجسون خيفة من كل ما يأتى من الغرب.

وعلى الرغم من ان الكتاب لا يتضمن جديدا بالنسبة للقارىء العربى إلا انه يقدم للقارىء الغربى بعدا غائبا فى تلك التجربة التاريخية المهمة، عندما يطرح عليه الرؤية العربية للحروب الصليبية فى صورة بيانية فذة تجعل الحوادث التاريخية تكاد تنبض بالحياة.